البابُ الرّابع

المُعارضَةُ في عهدِ السّلطان عبد الحميد

الفصلُ الأوّل

مُعارضَة أصْحاب الأديان الأخرى والمذاهبِ الفكريّة الوافدة منَ الغرب

أ ـ المعارضةُ اليهودية:

١ ـ المعارضةُ اليهودية باسْم العلم:

- المستشرقون اليهود في أوروبا:

كانت معارضة اليهود تنقسم إلى قسمين؛ الأول نظري: وهو عبارة عن نشاط المستشرقين اليهود في أوروبا. فقد كان لهؤلاء المستشرقين المبادرةُ في التنظير للقومية التركية بكتاباتهم ونشراتهم، وعلى رأس هؤلاء الذين ابتدعوا الفكرةَ القومية الطورانية كلٌّ مِن (لاملي دافيدز) و(ليون كاهون) و(فامبري). وهؤلاء أسهموا بالفكر والتأييد لجمعية «الاتحاد والترقي». والأخير منهم عمل فترةً مستشارًا للسّلطان عبد الحميد، لكنه كان في الواقع جاسوسًا لبريطانيا، وكان السّلطان يدرك حقيقته، لكنّه لم يُظهر في أيّ وقتٍ من الأوقات معرفته بذلك.

أمّا أبرز المفكّرين اليهود في الخارج مِن غير المستشرقين، فهو (إميل دوركايم) اليهودي الفرنسي صاحب المذهب الاجتماعي والذي نَظَّر

للقومية. وترك آثارًا في فكر رائد القومية التركية وفيلسوفها (محمد ضيا كوك آلب).

وكان المستشرقون اليهود في أوروبا على صلةٍ فكريّة بالمفكرين القوميّين اليهود داخل الدولة العثمانية. وهؤلاء الأخيرون كانوا «العقل المفكر» لجمعية «الاتحاد والترقي». وكان تأثيرُ يهود الداخل عظيمًا في أوساط الضباط الشبّان أعضاء الخلايا السريّة للاتحاد والترقي.

- المفكّرون اليهود في داخل الدولة العثمانية:

أبرزُ يهودِ الداخل هو: (موئيز كوهين). وكان يكتب باللغة التركية في الصحف والمجلات التركية. وكان عضوًا أساسيًّا في جمعية الاتحاد والترقي. ومِن مهمّاته التعريف بجمعية (الاتحاد والترقي) والدعاية لها في الصحف الأوروبية. وأسهم (موئيز كوهين) في التخطيط للسياسة العنصرية الطورانية، التي سارت عليها فيما بعد حكومة الاتحاد والترقي بعد خلع السّلطان عبد الحميد. وكان تأثير (موئيز كوهين) خطيرًا ولا سيما في الجيش العثماني، فيما يتعلق بضرورة قيام دولة تركية طورانية تجمع أتراك العالم في دولة واحدة، وبضرورة تتريك البلدان التابعة للدولة العثمانية. وهذه الفكرة هي أولُ سبب جوهري في نفور العرب من الأتراك.

ومِن يهود الداخل أيضًا (إبراهام غالانتي) الكاتب والمفكر البارز.

ومِن العلامات البارزة مِن يهود الداخل (إيمانويل قراصّو) وهو أستاذٌ أعظم في الماسونية، ومِن كبار مسئولي الاتحاد والترقي، وعضو الوفد الذي قابل السّلطان عبد الحميد لإبلاغه بقرار خلعه[1].

٢ـ المعارضةُ اليهودية الحركيّة:

ـ حركةُ هرتزل:

والقسمُ الثاني من المعارضة اليهودية، عمليّ حركي: تمثل في الحركة اليهودية الصهيونية العالمية التي تزعمها (تيودور هرتزل) الذي استطاعَ جمع التأييد الأوروبي للمسألة اليهودية: ألمانيا وبريطانيا وفرنسا، وجعل مِن هذه الدول قوةَ ضغطٍ على الدولة العثمانية تمهيدًا لمقابلة السّلطان عبد الحميد، وطلب فلسطين منه. وكان القيصرُ الروسي- فقط- ولأسبابٍ دينية يكنّ الكراهية الشديدة لليهود، وهو الوحيدُ الذي رفض مؤازرة (هرتزل) والطلب اليهودي.

جاء (هرتزل) ليقابل السّلطان عبد الحميد، وطلب إقامةَ وطنٍ يهودي في سنجق القدس. وكان يتكلّم مع السّلطان باسْم اليهود الصهاينة. ولكنّ أساس مطلب (هرتزل) إقامة قرى يهودية في فلسطين

(١) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة ص ٥١.

في مكان تحدّده الحكومة العثمانية، وتعهّد بأن يتّبع اليهودُ القادمون من الخارج قوانينَ الدولة العثمانية.

وتعهّد (هرتزل) بأن يقدّم اليهود في مقابل هذا (الخدمات والتسهيلات اللازمة للدولة العثمانية للقضاء على مشاكلها المالية الناجمة عن ديونها الخارجية» على أنْ يقدّم (هرتزل) المستندات اللازمة ضمانًا كتابيًّا. ورأى السّلطان عبد الحميد مجموعةَ موانع في هذا. وكان يرى أنّ «فلسطين بمقاماتها المباركة تشكّل أرضًا للمطامع والطموحات السياسية».

وكما أشير مِن قبْل أصدر السّلطان عقبَ هذا: إرادتين سلطانيّتين: الأولى في ٢٨ يونيو، والثانية في ٧ يوليو من عام ١٨٩٠م، يقضيان: بضرورة «عدم قبول الصهاينة في البلاد العثمانية، وإعادتهم إلى الأماكن التي جاؤوا منها». وأمر السّلطان عبد الحميد نظارةَ الشئون العقارية بعدم بيع أراضٍ للمهاجرين إلى فلسطين.

ولما وجدَ اليهود- وعلى رأسهم هرتزل- ألّا فائدة من اكتساب السّلطان عبد الحميد، وأنهم لا يمكنهم تحقيق آمالهم في إقامة وطنٍ لهم على حساب المسلمين في فلسطين؛ تحركت اليهودية العالمية لتدعيم أعداء السّلطان عبد الحميد، وهُم المتمرّدون الأرْمن، والقوميّون في البلقان،

وحركة حزب الاتحاد والترقي، والوقوف مع كلّ حركةٍ انفصالية عن الدولة العثمانية[1].

***

- مؤامرةُ اليهوديّ (نوردلنج) لاغتيال السّلطان عبد الحميد:

وهي مؤامرةُ اليهودي السويدي الذي ادّعى الإسلام، وسمّى نفسه «علي نوري» ودخل في سلك الدولة العثمانية، وكان يحمل بطاقةً عليها اسمه ووظيفته «علي نوري بك قنصل أوّل عثماني سابقًا». دخل البلاد العثمانية وهو في الثامنة عشرة من عمره، وادّعى الإسلام. وقابل هرتزل- وكان في الواحدِ والأربعين من عمره- وعرض عليه فكرتَه، وهي عبارة عن: «بارجتين لا يكلّفان أكثر من (٤٠٠,٠٠٠) ليرة ذهبية عثمانية، والمسألة كلّها لا تكلّف أكثر من نصف مليون ذهبًا عثمانيًّا، أي يبقى (١٠٠,٠٠٠) منها، وتأجير ألفِ رجل، تدخل البارجتان البسفور، وتدمّران قصر يلديز، بحيث يُقبض على السّلطان عبد الحميد، أو تُغمض العيون عنْ فراره، وينصّب مكانه سلطان آخر، ويُعلن قيام حكومة مؤقتة، وعن طريقها يحصل اليهود على امتياز فلسطين».

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣.

ولم يتمّ الاتفاقُ الكامل بين (هرتزل، ونوردلنج) لأنّ الأول خاف- فيما بعد- من حدوثِ مجزرةٍ لبني جلدته اليهود داخل الدولة العثمانية إذا فشلت هذه المؤامرة[1].

***

ب- المعارضةُ النصرانيّة:

١ـ في مصر:

كان الحزبُ الوطني في مصر، وعلى رأسه (مصطفى كامل باشا) يقول: إنّ الوسيلة الوحيدة للتخلص من الإنكليز في مصر، هي التوجّه نحو الدولة العثمانية، وتأييد سياسة السّلطان عبد الحميد.

«وكان الشبابُ الأقباط يجدون بعضَ الأشياء من الدعوة الدينية في الحزب الوطني، وكذلك الدعوة العثمانية، وكان منطقُهم يقول: إذا كنتم تدعون إلى جامعةٍ إسلامية، وإلى تأييد الحقوق العثمانية، فإنّ لنا الحق في الاعتماد على الاحتلال البريطاني»[2].

---

(١) حكمت طانيو، المرجع السابق جـ ١، ص ٤٧١، وعن هرتزل في مذكراته في يومي ٢٤/ ٢/ ١٩٠٤ و ١٠/ ٤/ ١٩٠٤. ومقال شاهين ألب آي في هذا الخصوص في مجلة المجتمع والتاريخ، العدد ٣ عام ١٩٨٤.

(٢) سلامة موسى في مذكراته في مجلة الكاتب المصري، المجلد ٣ العدد ١٠، وجريدة الوطن (المصرية) في ١٥ يونيو ١٩٠٨ على الترتيب نقلًا عن الشوابكة صفحات ١٧١- ١٧٢ و١٧٤ و١٠٤ على التوالي.

وكانت الصحافةُ القبطيّة في مصر، هي أبواقَ المعارضة: صحيفة الوطن وصحيفة مصر. وكانت صحيفة الوطن تكثرُ من الطعن في السياسة العثمانية، وتنتقدُ مواقف الدولة العثمانية، وناصرت صحيفة الوطن القبطية الإنكليز، وحملت على الجامعة الإسلامية(١).

ووقفت صحيفةُ مصر موقفًا عدائيًّا من الدولة العثمانية أثناء الحرب العثمانية- اليونانية عام ١٨٩٧م. وزعمت صحيفةُ مصر- عندما وجدت حماسة المصريّين لمناصرة الدولة العثمانية، وتأييد الخليفة السّلطان عبد الحميد- «أنّ الدولة العثمانية ليست بحاجةٍ إلى هذه المساعدات، وإذا كان لا بدّ من التبرعات، فليكن ذلك باسْمٍ غير اسم الجامعة الإسلامية» (٢).

ويدخل ضمنَ المعارضة النصرانيّة في مصر، الصحفُ الشامية النصرانية المهاجر أصحابها إلى مصر، وهي: صحيفة «المقطم» المؤيدة للسياسة الإنكليزية، والتي دأبتْ على الطعن في الدولة العثمانية ورجالاتها، والتعريض بسياساتها الخارجية والداخلية، وخاصّة أحوالها المالية. ووقفت إلى جانب الفئات الثائرة على الدولة العثمانية، وأكثرت الحديثَ عن الأرْمن وثوراتهم وأوضاعهم في الدولة العثمانية.

---

(١) و(٢) سلامة موسى في مذكراته في مجلة الكاتب المصري، المجلد ٣ العدد ١٠، وجريدة الوطن (المصرية) في ١٥ يونيو ١٩٠٨ على الترتيب نقلًا عن الشوابكة صفحات ١٧١ - ١٧٢ و١٧٤ و١٠٤ على التوالي.

ونكايةً في السّلطان عبد الحميد، أفسحت جريدة «المقطم» لأعضاء حزب الاتحاد والترقي الهاربين إلى مصر فرصةَ الكتابة فيها، ومهاجمة السّلطان عبد الحميد، والطعن فيه على صفحاتها. وعارضت المقطم كلَّ أساليب الدّعم التي أبْداها المصريون للدولة العثمانية في أزماتها المالية، وفي حروبها مع أعدائها. وطالبت المقطمُ الحكومةَ المصرية بنشر منشورٍ في الصحف يؤكّد أن الإعانات التي يجمعها المصريون ليست من أجلِ جهاد الدولة العثمانية، وإنما من أجل إعاندة الدولة العثمانية.

ومِن هذه الصحف أيضًا صحيفة «الضياء» التي أنشأها في القاهرة إبراهيم اليازجي عام ١٨٩٨م، وكانت سيفًا مسلّطًا على العثمانيّين، وصحيفة «المشير» التي أصدرها (سليم سركيس) في الإسكندرية عام ١٨٩٤م، وانتقلت في عام ١٨٩٩م إلى نيويورك. وكانت شديدةً كلّ الشدَّة على العثمانيّين وعلى الحكم العثماني، وعلى الجامعة الإسلامية. فقد كانت «المشير» ترى ضرورةَ هدم كيان الخلافة العثمانية. وكانت تحرض السوريّين على الثورة ضدّ الحكم العثماني، لدرجة أنّ محكمة الجزاءات في مصر أصدرت أمرها بتسليم (سليم سركيس) صاحب هذه الجريدة إلى السلطات العثمانية، وطلبت ولاية بيروت من مصر تسليمها إياه، ورفض اللّورد (كرومر) المعتمد البريطاني في مصر تسليمه، بل وفّرَ له الحماية الكافية.

ومن صحافة السوريّين النصارى في مصر التي كانت ضدّ الحكم العثماني ومعارضة للجامعة الإسلامية صحيفة «تحرير سوريا» التي صدرت عام ١٩٠١م بالقاهرة عن جمعية الإصلاح السورية. وكان يشرف عليها (جورج عسَّاف).

٢ـ في الشام:

اتخذت معارضةُ حكم السّلطان عبد الحميد في الشام شكلَ جمعيات أدبية وعلمية، أعضاؤها من النصارى العرب وعناصر من النصارى الأجانب، وعملت بعد ذلك على «ضمّ عناصر إسلامية إلى عضويّتها للتغطية على طبيعتها وأهدافها»[١].

ورغم المسمّيات التي اتخذتها هذه الجمعيات؛ إلّا أنّ محور عملها ونشاطها كان معاداة الحكم العثماني، ومعارضة التجمع الإسلامي، وحركة الجامعة الإسلامية، والعمل ضدّ السّلطان عبد الحميد، واتهام العثمانيين باغتصاب الخلافة، بدعوى أنّ العرب أحقّ بها.

وظهر في الشام كتّاب نصارى يناهضون حكمَ السّلطان وسياسته في الجامعة الإسلامية. أبرزهم (شبلي شميل) وهو أرثوذكسي، اعتنق نظرية (داروين) في التطور وروّج لها في البلاد العربية، ودفعه كرهُه للسّلطان عبد الحميد إلى أن ينضمّ لمناوئيه من جماعة تركيا الفتاة.

(١) المصدر السابق.

و«نجيب العازوري» أيضًا من هؤلاء الكتّاب، وهو أرثوذكسي، وعمل في خدمة الدولة العثمانية في القدس، وهو الذي كوّن عصبةَ الوطن العربي في باريس لمناوئة الحكم العثماني. وأصدر من فرنسا مجلة شهرية بالفرنسية بعنوان «الاستقلال العربي». وكان نجيب العازوري هذا ينادي- أثناء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية- إلى نزع الخلافة من العثمانيّين، ونقلها إلى العرب. كما دعا- مثله في هذا مثل (شبلي شميل)- إلى علمانية دولة الخلافة العربية عند إنشائها، وذلك بإقامة سلطتيْن؛ واحدة منها روحية في الحجاز وأخرى زمنية في أي مكان.

وكانت الصحافة السورية النصرانية مناوئة للعثمانيّين وللجامعة الإسلامية، ومن أبرز عناصر هذه الصحافة: صحيفة (الجنان) التي أنشأها (بطرس البستاني) في يناير عام ١٨٧٠م. وصحيفة (مرآة الأحوال) التي أنشأها (رزق الله حسون) في استانبول عام ١٨٥٤م. ثمّ نقلها إلى لندن عام ١٨٧٦[١].

(١) أنشأ لويس صابونجي الحلبي جريدةً عربية في لندن، وسمّاها (القِبْلَة) ودعا فيها إلى نقل الخلافة إلى العرب، ويجدر بالذكر هنا أنّ «المؤتمر العربي» عقده القوميون العرب في باريس عام ١٩١٣م، وقال فيه الرصافي شاعر العراق:

لو كان في غير باريس اجتماعهم ما كنت أحسبهم قومًا مناحيسا

وقد أعدم جمال باشا والي سوريا وأحدُ أقطاب الاتحاد والترقي الثلاثة الكبار عددًا كبيرًا منهم أثناء الحرب العالمية الأولى.

٣ـ في المناطق التابعة للدولة في أوروبا:

كانت المناطق العثمانية في أوروبا تغلي بالحركات الانفصالية والاستقلالية. وكان المحرك لهذه الحركات كلٌّ من (المذهب القومي) وتحريض (روسيا وإنكلترا والكنيسة). والذي نورده هنا هو دورُ الكنيسة في الحركة البلقانية ضدّ الدولة العثمانية.

كانت سياسة العثمانيّين- بعد الفتح الإسلامي للقسطنطينية- هي عدم التدخل في شئون أهالي الديانات الأخرى- ولم تتدخل الدولة بالتالي في شئون الكنيسة. وكان لكلٍّ كنيسة مدارسها ومؤسساتها. والدراسة في هذه المدارس يقوم بها الرّهبان والقسس، وتحوّلت الكنيسة إلى «حكومة داخل الحكومة».

لكنّ البطارقة ورجالَ الدين الأرثوذكس، أساؤوا استخدام هذه الامتيازات الممنوحة لهم.

قامت البطريركية بإيقاظ المشاعر القومية لدى «الشعب» النصراني الذي تجمّع حول الكنائس، واطمأن لقيادة البطريركية، وازداد هذا الاهتمام بالمشاعر القومية مع مرور الأيام. كما أعلنت البطريركية نفسَها حامية وموجهة لمبدأ إحياء بيزنطة من جديد، وطرد العثمانيّين من البلقان وأوروبا والأناضول إلى صحراء آسيا الوسطى كما جاؤوا منها.

لم تكتفِ البطريركية بإشعال نيران الإحياءِ البيزنطي بين أتباعها في أوروبا العثمانية عن طريق مدارسها وقسَسِها- هؤلاء المعلّمين المدربين لهذا الأمر- بل ألغت البطريركيةُ اللغة العثمانية- وهي لغة الدولة- من مدارسها مع التوسّع في تدريس اللغة اليونانية.

وتعاونت البطريركية مع جمعية «إيتريا» السرّية- التي أسّست لتنفيذ فكرة الإحياء البيزنطي- في قيام تمرّد (المورة) ضدّ الدولة العثمانية. كما ساعدت البطريركية اليونانَ في مشروعاتها التوسعية على حساب الأراضي العثمانية، كما آزرت البطريركية اليونانَ عندما أعلنت هذه الحرب، واخترقت الحدود العثمانية عام ١٨٩٨م.

كما كانت البطريركية هي التي تدير تمرّد (كريت) الذي أرهق الدولة العثمانية في عهد السّلطان عبد الحميد.

ولقد عبّر (فنزيلوس)- فيما بعد- عن دور البطريركية في تحقيقِ الآمال الدينية والقومية الروميّة اليونانية في منطقة أوروبا العثمانية على حساب العثمانيّين في عبارته: «إنّ دور العبادة والمدارس التابعة للبطريركية قد تحوّلت إلى مخازنَ للأسلحة» ضدّ السّلطان عبد الحميد، وضدّ الدولة العثمانية. ومعنى هذا «أنّ البطريركية ومؤسساتها قد قامت- عبر التاريخ- بدور المراكز السياسية والقواعد العسكرية».

وبلغَ مِن حماس البطريركية، أنْ قامت- فيما بعد- بقيادة أتباعها في هجوم ليلي مفاجئ على جامع أياصوفيا في استانبول لاحتلاله، كرمز لفكرةً الإحياء البيزنطي، وكان رجالها يحملون معهم علماً يونانيًّا وناقوسًا كنسيًّا[١].

***

جـ- معارضةُ أصحابِ المذاهب الفكرية الوافدة من الغرب:

كان للفكر الأوروبي أثرُه الكبير في قلب أوضاع الدولة العثمانية. وكان من جملة الأسباب التي أدّت إلى سقوطها مذاهب: القومية والإنسانية والعلمانية والديمقراطية الأوروبية. وجاءت هذه المذاهب لكي تكسب أنصارًا من الشباب العثماني- عن طريق الترجمة والابتعاث- فينضوي تحت لوائها، ومن ثمّ يعارض نظام الدولة العثمانية التي يعيش في كنفها. وفي مقدمة هذه المذاهب: القومية.

١ـ القوميّون:

والقوميّة، كانت متبلورةً بين الشباب العثماني واضحة ومرتبطة بالإسلام ويعبّر عنها بالملّية. والقومية في العالم العربي ارتبطت بالنصرانية، بمعنى: أنّ نصارى الشام حملوا لواءَ القومية وبمفهومها

(١) م. ثريا شاهين، البطريركية الأرثوذكسية اليونانية وتركيا، ص ٢٤٠، استانبول ١٩٨٠.

العلماني، ونشروا هذا عن طريق جمعياتهم وصحافتهم. وارتبطت القومية في منطقة أوروبا العثمانية بالكنيسة ارتباطًا جذريًّا. ولم يعدْ من الممكن التفرقةُ بين النصرانية والقومية.

والقوميّة في الشام، ارتبطت أيضًا بحركةِ التنصير العالمية، وبالتعليم الأجنبي، في المدارس التي أقامها هناك كلّ من (الجزويت) و(الكاثوليك) و(البروتستانت) وغيرهم. وبثّوا من خلالها الفكرة الدينية المرتبطة بالحثّ على الانفصال عن الدولة العثمانية. فالمنصّرون البروتستانت أنشأوا كليةً في بيروت عام ١٨٦٢م. وجعلوا على رأسها (دانيال بِلِسْ) وتطورت هذه المدرسة لكي تصبح «الكلية السورية الإنجيلية» وهي اليوم «الجامعة الأمريكية» في بيروت.

وارتبطت القوميةُ في الشام بالتنصير كما حدث في محاولة ما سُمّي بمحاولة «تحضير البدو في بادية الشام»، للوصول إلى اجتذاب أبنائهم إلى النصرانية. ممّا دعا السّلطان عبد الحميد إلى الأمرِ بإغلاق مدارس المنصّرين (عام ١٣٠٦هـ- ١٨٨٨م).

وكان المنصّرون يثيرون الفتن في الدولة العثمانية، ويتجسّسون لدولهم سياسيًّا وعسكريًّا، ويبعثون روحَ الفرقة بين رعايا الدولة العثمانية[١].

(١) الغامدي صفحات ١٢٧- ١٢٩ و١٣٢ و١٤٠ـ ١٤١، وكذلك الشوابكة صفحة ٣٠.

تمثّل النشاط القومي في الشام في عددٍ من الشخصيات التي برزت على ساحة الأحداث، وقامت بدورٍ بارز في نشر المؤلفات والكتب وإنشاء الصحف والمجلات التي تنادي في مضمونها بنشر فكرة (القومية العربية) بصورةٍ خفيّة ومتحرّزة.

كان مِن الدعاة القوميّين في هذا المضمار أسماءٌ كثيرة، على رأسها (بطرس البستاني»). إنه نصراني بروتستانتي احتكّ بعددٍ كبير من الإرساليّات الغربية، وأسْهم بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية. وأصدر قاموسًا للغة العربية في جزأين بعنوان (محيطُ المحيط) واختصره تسهيلًا لانتشاره في مجلدٍ واحد سمّاه (قطر المحيط) ووضع دائرة معارف البستاني. ولم يظهر منها إلّا ستة مجلدات في حياته ثمّ أتمّها أولاده حتى ظهر منها أحد عشر مجلدًا. وهذا بجانب نشاطِه الصحافي، ومنه إصدار مجلة «الجنان»، وكان (مدحت باشا) يشجعها عندما كان واليًا على سوريا.

وكان بطرس حريصًا في كلّ نشاطه على عامل التثقيف، وبثّ الحياة القومية والأدب القومي في نفوس الشاميّين[١].

ورأى السّلطان عبد الحميد أنّ النشاط الصحافي القومي قد تجاوز تجـاوزًا كبيرًا القوانينَ والأنظمة التي وضعتها الدولة العثمانية،

---

(١) المصدر السابق.

واستهانَ بالدولة وبكيانها، واستغلّ تساهل الحكومة في تطبيق هذه القوانين؛ فأصدر أوامره إلى الصدْر الأعظم- وكان مدحت باشا وقتها- بإلغاء كلّ الصحف التي تصدر عن أحزابٍ داخلية وطائفية في البلاد العثمانية قاطبة. وأضاف إلى قانون الصحافة الذي كان صدرَ في عهد عمّه السّلطان عبد العزيز عام ١٨٧٨م؛ موادَّ جديدة رادعةً لتكون مانعًا لأيّة منشورات تروّج للأفكار الانفصالية، والقومية، من صحفٍ وكتب وسواها[١].

وكان لجمعية بيروت السريّة التي تأسّست قبل اعتلاء السّلطان عبد الحميد العرش بسنة واحدة؛ أثرٌ كبير في تنمية الشعور المعادي للعثمانيّين، وتهدف هذه الجمعية إلى انفصال سوريا ولبنان عن الدولة العثمانية واستقلالهما، وقد كوّنها نصارى الشام ثمّ دخلها غيرهم، وكان نشاطُها يتمثل في إصدار المنشورات وإلصاقها في الشوارع تحتَ ستار الظلام. وتتضمّن هذه مهاجمةَ النظام العثماني، ودعوة العرب إلى الثورة ضده، وتحطيم نظام السّلطان عبد الحميد.

ظهرت هذه الجمعية أثناءَ حكم مدحت باشا واليًا عثمانيًّا على سوريا. وقد اتُّهم مدحت باشا بأنه يعمل على استقلال سوريا، لذلك نُقل إلى إزمير واليًا عليها.

---

(١) المصدر السابق.

والحقيقة: أنّ برنامج جمعية بيروت السريّة، يقول بمنح الاستقلال سوريا بالاتحاد مع لبنان على أساس قومي.

وفي مواجهةِ حكم السّلطان عبد الحميد قامت جمعياتٌ في سوريا بعد أن تفشّت فيها الروحُ القومية، مثل جمعية «المقاصد الخيرية» (قامت عام ١٨٧٨م). وهذه الجمعية كانت مُدعمة من والي سوريا العثماني مدحت باشا المناهض للسلطان عبد الحميد، إلّا أنّ الحكومة العثمانية لم تسمح لها بالاستمرار. وجمعية النهضة العربية (تأسست عام ١٩٠٦م)، وكان مركزها الرئيسي في استانبول، والذي تحوّل بعد ذلك إلى «المنتدى الأدبي»، وكان فرعها في دمشق يحملُ اسمَ «جمعية النهضة السورية». و»كانت غاية الجمعية الظاهرية نشرَ اللغة العربية، وغايتها السرية إنقاذُ بلاد العرب من مظاليم العثمانيّين في زعم مؤسّسيها». وتدعو إلى مناهضة الحكم العثماني، وتوحيد البلاد العربية في دولةٍ مستقلّة عن الحكومة العثمانية، لها كيانها ومقوماتها الخاصة»[(١)].

***

أمّا القوميّون في مصر فقد هاجموا الرابطة الدينية عمومًا، والجامعة الإسلامية خصوصًا. ومثل اتجاههم «حزب الأمة» الذي قام رسميًّا في

(١) خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق ص ٢١٦ نقلًا عن الغامدي ١٥٧.

مصر في ٢١ سبتمبر ١٩٠٧م برئاسة (محمود سليمان)، وكان قوامُه جماعة من الباشوات وكبار ملاك الأراضي الزراعية، الذين لم يكن تفكيرهم السياسي وقتذاك يتجاوز مصالحهم الشخصيّة، التي كانت منسجمةً إلى حدٍّ كبير مع مصالح الاحتلال، عندما عمدَ الاحتلالُ إلى تثبيت الملكيّات الزراعية. ممّا أشعر كبار الملّاك بنوعٍ من الطمأنينة. وكان منهم (أحمد لطفي السيد) المشهور بفيلسوف الجيلِ. وأصدر الحزبُ صحيفة «الجريدة» معبرًا عنه(١).

نادت صحيفةُ «الجريدة» بوجوب تقوية الشخصية المصرية وزيادة ارتباطها بمصر، بديلًا عن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية. وفي هذا تقول: «.. نجعل بلادنا ــ مصر ــ وأنفسنا على المشاع، وسط ما يسمّى خطأ الجامعة الإسلامية»(٢).

***

أمّا القومية عند الأرمن ــ أحد شعوب الدولة العثمانية ــ فقد ارتبطتْ بالنزعة الاستقلالية. وكان همُّ الأرْمن القيامَ بمضايقات للسكان المسلمين، مِن أكراد وأتراك وغيرهم ممّن يعيشون معًا في نفس المنطقة:

(١) العقاد، مقال الأحزاب السياسية في مصر في جريدة أخبار اليوم القاهرية في ١٩١٦\١١\١٦ و«الجريدة» العدد ١٦٦٧ في ٢ سبتمبر ١٩١٢ نقلًا عن الشوابكة صفحتي ١٦٥ و ١٦٨

(٢) المصدر السابق

موش وأضنه وغيرهما من الأماكن التي يسكن فيها الأرمن، وينادون بقيام دولة أرمنية فيها، أي منطقة شرق الأناضول. وكان السّلطان عبد الحميد يقف منهم موقفًا حازمًا. وبلغت المعارضة القومية الأرمنية ضدّ السّلطان عبد الحميد حدًّا جعلهم يرتّبون عملية للتخلّص منه، وهي عملية تسمّى (بحادث القنبلة). لقد اتفق القوميون الأرمن في عام ١٩٠٥م مع إرهابي دولي يدعى (إدوارد جوريس) وهو بلجيكي الجنسية أرمني الأصل على اغتيال السّلطان.

وفي ٢١ يوليو ١٩٠٦م أعدّ هذا الإرهابي مع مساعدين له قنبلة موقوتة، بحيث تنفجر في لحظة معينة. هي لحظة خروج السّلطان من المسجد عقبَ صلاة الجمعة، والمسجد هو مسجد بلديز. ثمّ اختبأ (إدوارد جوريس) في عربةٍ تجرّها الجياد، وكأنه سائحٌ أجنبي جاء يتفرّج على مراسم الاحتفال بصلاة الجمعة. لكن السّلطان تأخّر عن توقيت الانفجار؛ لأنه توقّف فجأة ليسأل شيخ الإسلام في مسألة. فتأخّر عن التوقيت المعدّ للانفجار، فانفجرت القنبلة ونجا السّلطان، لكنّ ٢٦ شخصًا قتلوا في هذا الحادث وجرح آخرون، وتدخلت السفارة البلجيكية لحماية (إدوارد جوريس) بمقتضى قانون الامتيازات الأجنبية. وكانت المفاجأة أنّ السّلطان عفا عنه، ثمّ أنعمَ عليه بمبلغ (٥٠٠) جنيه عثماني ذهبًا. أمّا المفاجأة الأكبر من هذا، أنّ السّلطان عبد

الحميد استمالَ هذا الأرمني لصالحه، واستخدمه في جهاز المخابرات العثمانية في أوروبا.

***

وارتبطت المعارضة القومية في مقدونيا والبلقان عمومًا من الأراضي العثمانية في أوروبا- مثلما ارتبطت مع الأرْمن- بالحركات الإرهابية، والرغبة في الانفصال عن الدولة.

لقد كان في منطقة مقدونيا فقط، مليون ونصف مليون مسلم، بين أتراك وألبانيّين، بالإضافة إلى الرعايا النصارى من البلغار ويبلغون (٩٠٠,٠٠٠) نسمة، واليونانيين ويبلغون (٣٠٠,٠٠٠) نسمة، والصرب (١٠٠,٠٠٠) والبولنديين مثلهم أي (١٠٠,٠٠٠) نسمة.

لكنّ أوروبا كانت متعاونة مع الرعايا النصارى في الدولة العثمانية، تؤيدهم لعملياتهم الإرهابية ضدّ المسلمين، وبالتالي ضدّ نظام الدولة العثمانية، تمهيدًا لمساعدتهم في استقلالهم عن الدولة.

***

٢ـ الماسونيون:

أقامتِ المحافل الماسونية جدارَ معارضة قويًّا ضدّ السّلطان عبد الحميد ونظامه. لقد تغلغلت في الدولة العثمانية تغلغلًا واسعًا،

حتى وصلت إلى أفرادِ القصر. فقد كان الأمير (مراد) الأخ الأكبر للسلطان عبد الحميد ماسونيًّا. وهو الذي عرف بعد ارتقائه العرش باسْم السّلطان مراد الخامس، قبل سلطنة السّلطان عبد الحميد مباشرة، ولقد جذبه إلى الماسونية الأمير (إدوارد) ولي عهد إنكلتر. والذي أصبح فيما بعد ملكًا على إنكلترا باسْم الملك إدوارد السابع.

لقد التفَّت الماسونية حول السّلطان عبد الحميد، منذ بدء جلوسه على العرش، حتى عزلته عن العرش. فقد كان أغلب وزرائه وصدوره العظام وأمناء القصر الحاكم، ماسونًا. «ووصل الأمر أنْ كان جمال الدين الأفغاني أحد أعمدة الدعاية للجامعة الإسلامية، التي نادى بها السّلطان عبد الحميد؛ ماسونيًّا»(١).

كان أبرزُ الصدور العظام في عهد السّلطان عبد الحميد- وهو (مدحت باشا)ـ ماسونيًّا. ويذكر الدكتور (حكمت طانيو) عميد كلية الإلهيات في جامعة أنقرة، ومؤلف كتاب «اليهود والأتراك عبر التاريخ» أن مدحت باشا يهوديّ الأصل. ويحيل هذا المؤلف على مرجعه في هذا، وهو كتاب «يهود فرنسا» تأليف: إدوارد ودارمونت. المطبوع عام ١٨٨٩م، في باريس في صفحة ١١٣ من المجلد الأول.

(١) إلهامي صوى صال، المرجع السابق، ص٢٠٦.

ونصُّ الفقرة التي استشهد بها هذا المؤلف هي:

«إنّ (مدحت باشا) إنما هو ابنُ حاخام يهود مجري. وهو- أي مدحت باشا- رائد حركة التجديدات المعروفة في الدولة التركية. وكان له فضلُ افتتاح مدارس تستند على المبادئ اليهودية، علّم فيها المبادئ الثورية. ومدحت باشا هو مؤسّس حزب «تركيا الفتاة». وكلّ هذه الصروح، قد أقيمت بتعليمات من (سيمون دويتش) صديقه الكتوم في أوروبا. إنّ جريمة قتل السّلطان عبد العزيز، قد ارتكبت أمام مرأى ومسمع من مدحت باشا»[١] .

وبلغ مدحت باشا من الشهرة في أوروبا مدًى عميقًا جعل إنكلترا تعدّ خطة لتهريبه على ظهر بارجة إنكليزية من منفاه في الطائف، ويذكر هنا لجوؤه عندما أرادتْ منه المحاكم العثمانية المثولَ أمامها في مسألة مقتل السّلطان عبد العزيز، واحتماؤه بالسفارة الفرنسية في استانبول.

كانت مخابرات السّلطان عبد الحميد تتَّبِع نشاط الماسونيّين، رغم أنهم كانوا يحتمون بالسفارات الأجنبية، ويلجأون إلى الشخصية الأجنبية التي تتمتّع بالحماية، حسب قانون الامتيازات الأجنبية.

(١) طانية، المرجع السابق ص ٢٥٦ـ ٢٦٠

ورغم كلّ احتياطيات السّلطان عبد الحميد، فقد تغلغل الماسون في حزب الاتحاد والترقي، ورؤساء هذا الحزب- في أغلبهم- من الماسون.

كانت المحافلُ الماسونية، موجودةً في استانبول. وكان في سلانيك محفلٌ ماسوني هو محفل «مقدونيا- ريزورتا» التابع للمحفلِ الإيطالي الأكبر. كما كان فيها محفلُ «لاافنيير دي لورينت» التابع للمحفلِ الفرنسي الأكبر، ومحفل «فريتاس» التابع للمحفلِ الفرنسي، وغيرهم.

ولعب محفلُ «مقدونيا- ريزورتا» دورًا كبيرًا في حركة إسقاط السّلطان عبد الحميد، ذلك لأن قادة الاتحاد والترقي الكبار كانوا أعضاءً فيه، وهم: (طلعت باشا) و (مدحت شكري بلادا) و (كاظم باشا) و (مانياس زاده رفيق) و (كاظم نامي ضورو) و البكباشي (نقي) عضو مجلس المبعوثان عن ولاية (موش) و (حسين محيي الدين) قائد قوات الجاندارما بمنطقة دراما.

أمّا محفل (فريتاس) فكان له أيضًا النصيبُ الكبير في حركة حشد القوى الثورية في حركة إسقاط السّلطان عبد الحميد؛ لأنّ المنتسبين إليه كانوا الجزء الآخر من كبار قادة الاتحاد والترقي، وهم: إيمانويل قراصّو (يهود دونمه عثماني) و(جمال باشا) و(فائق سليمان باشا) و(إسماعيل جانبولاط) و الشيخ (فهمي أفندي) عضو مجلس المبعوثان عن منطقة

كوموجنة في تراقيا الغربية (في اليونان الآن) و(مصطفي نجيب)، وإنْ تميّز كلٌّ من (طلعت باشا) الذي أصبح الصدر الأعظم في حكومة الاتحاد والترقي، والبكباش (نقي بك) باشتراكهما في إعمال المحفلين: «مقدونيا- ريزورتا» و «فريتاس».

ولم يستطعِ الماسونيون إقامةَ المحافل الماسونية التابعة للقوى الخارجية للسلطان عبدِ الحميد[1].

***

٣ـ العلمانيّون:

العلمانية- كمبدأ غربي واحد- يمكن أن يشترك فيه القوميّون الذين لا يعطون للدّين أهميةً في الحكم وفي الحياة. وهؤلاء يمكن أن يكونوا من النصارى كما يمكن أن يكونوا من المسلمين.

ومِن الشام نماذجُ واضحة لهذا النوع من المفكرين على الجانب النصراني، أمّا عن الجانب المسلم فيمكن إدراج نموذج منه هو الشيخ (عبد الرحمن الكواكبي).

وعبد الرحمن الكواكبي من دعاة الفكرة الوطنية المجرّدة من الدين، لذلك ناهض وعارض الجامعة الإسلامية كثيرًا. وكذلك كان في مقدمة المعارضين للسّلطان عبد الحميد.

---

(١) إلهامي، المرجع السابق ٢٠٨ـ٢١١

لقد تأثّر عبد الرحمن الكواكبي بالمفهوم الكنسي لطبيعة النظام السياسي. وكان ذلك من خلال مطالعاته لكتابات مفكّري الثورة الفرنسية. واقترب في هذا مِن هؤلاء الذين عارضوا وعادوا الجامعة الإسلامية من معاصريه من نصاري الشام مثل نجيب العازوري[1].

ويرى (عبد الرحمن الكواكبي) أنّ الدّين يقتصر على أمور الآخرة، وألّا علاقة له بأمور الدنيا، التي يمكن أن ينظّمها الناس باجتهاداتهم وقوانينهم الدنيوية. ويقول في هذا: «... دعونا نتدبّر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكمُ في الآخرة فقط». وقد أخذ عليه معاصروه دعوته المبكّرة للعلمانية الداعية لفصل الدّين عن الدولة، فقال عنه الشيخ (محمد رشيد رضا)- وهو معاصر له- ما يأتي: «.. إننا خالفناه في مسائل عدة، وعلى رأسها مناداته بالفصل بين السلطتين الدينية والسياسية»

***

أقام (عبد الرحمن الكواكبي) في مصرَ قرابة عامين، وهو يعمل ضدّ سياسة السّلطان عبد الحميد. وبلغت شهرته في مصر مكانةً كبيرة، وقرّبه الخديوي عباس حلمي إليه، وتوثقت الروابط بينهما.

---

(١) (٢١و٢٢) بطرس غالي، الكواكبي والجامعة الإسلامية ص٣٩ ومحمود السمرة مجلة الغربي عدد أبريل ١٩٦٥ وطبائع الاستبداد ص١٠٠-١٠١ على التوالي نقلًا عن الشوابكة صفحتي ٧٤و٧٥

وكان الخديوي يعمل من أجل تحويل الخلافة الإسلامية من الدولة العثمانية إلى العرب، على أن يكون هو سلطانها الزمني، والشريف حسين خليفتها الروحي. وبهذا تصبح مصر بدلًا من الدولة العثمانية المركزَ السياسي للدولة الإسلامية. وقد ذكرَ عبد الرحمن الكواكبي اسمَ عباس في مقدّمة كتابه «طبائع الاستبداد» الذي كتبه على شكلِ سلسلةِ مقالات في صحيفة «المؤيد» القاهرية ابتداءً من ١٥ أكتوبر ١٩٠٠م. وكانت مقالاته شديدةَ اللّهجة والجرأة، تحوم حول الاستبداد وتهاجم السّلطان عبد الحميد وسياسته. وعندما جمع هذه المقالات لينشرها زادَ عليها. وفي كتابه «أمّ القرى» ينقد أيضًا الكواكبي الإدارة المركزية في الدولة العثمانية، ويدعو دعوة صريحة لإقامة خليفةٍ عربي قريشي في مكة المكرمة، وليس في استانبول، ويحمل حملة شعواء على العثمانيّين[١].

***

ويعتبر الكواكبي أيضًا مثلًا للقوميّين العرب الذين ركّزوا جهودهم للدعوة لانفصال العرب عن الدولة العثمانية.

---

(١) الغامدي ص ٢٧٧و٢٧٨

٤ـ دعاةُ الإنسانية الأوروبية:

وهُمُ الذين يتبعون المذهب المسمّى بالإنسانية، وهو في المنطوق الأوروبي «هيومانيزم» ويعنون به عشق الإنسانية، أو حبّ الإنسانية، في المعني الفلسفي. ومن معاني الكلمة في الأدب التخلّص من سطوة الدين والتعصب، والأخذ بالمدنية الأوروبية الجديدة. فالإنسانية مصطلح مموّه، يتخفّى تحت شعار عشق الإنسانية، ويدعو للانسلاخ من الدين. والإنسانية بهذا المعنى مذهبٌ شاعَ في أوروبا في أواخر القرن الماضي، وأوائل هذا القرن العشرين. وانتشرَ في الدولة العثمانية عن طريق الترجمات عن اللغات الأوروبية، وعن طريق طلاب البعثات الموفدين إلى الخارج.

ومن ممثلي هذا المذهب الفلسفي الأدبي في الدولة العثمانية، الشاعر (توفيق فكرت)، وهو تركي ولد في استنابول، ويعتبر أكبر شاعر في مرحلة أدبية واضحة في تاريخ الأدب العثماني، وتسمّى مرحلة ثروة الفنون. وهذا الشاعر هو الذي فتح المجال الأدبي لظهور الأدب الملحد، وأدب الواقعية الاشتراكية «الماركسي» في تركيا.

وتنقسمُ أعمال (توفيق فكرت) إلى فكرتيْن أساسيّتين عنده، هما؛ الأولى: الإلحاد، والثانية: مهاجمة السّلطان عبد الحميد والنظام العثماني كله. وتوفيق فكرت يقول بصراحةٍ في أشعاره: «أنا لا أعرف المعبود

ولا أعرف العابد. وليس لي كتاب إلّا الطبيعة. أمّا الدين- إن كان لا بدّ من دين- فهو الحياة». و«أنا هو أنا، وأنت أنت، وبالتالي فلا ربّ ولا عباد».

وكان (لتوفيق فكرت) موقف، عندما قامت عصابة أرمنية، على رأسها (إدوارد جوريس) بمحاولة قتل السّلطان عبد الحميد بعد صلاة الجمعة، ولكنّ القنبلة انفجرت دونَ أن تصيب السّلطان بأذى، فحزن (توفيق فكرت) ونظمَ قصيدة يحيّي فيها الأرمني الذي حاول اغتيال السّلطان. وأسفَ فيها لعدم مقتل السّلطان عبد الحميد. هذه القصيدة تسمى «لحظة تأخّر» ويقول فيها:

أيّها الصياد العظيم

نعم. لقد أطلقت السلاح، لكن للأسف

لأنّك لم تصبه[1]

***

٥ـ العقلانيّون (الوضعيون):

غزت العقلانيةُ البلاد العثمانية في القرن التاسع عشر الميلادي، كما غزت كثيرًا من بلاد المسلمين. وظهر عقلانيّون يدعون إلى الثقة في

(١) طانيو، المرجع السابق ص٤٧٢.

قدرة العقل المطلق، وينكرون الغيب، ويعلنون سيادة الحقائق العلمية. ومؤسس هذا المذهب الفكري هو (أوغيت كنْتْ) (تنطق الكاف في كَنتْ أقرب إلى القاف) وهو يهودي من أرباب الماسونية في فرنسا[1].

***

وأبرز ممثل لهذا الفكر الوافد، هو: (أحمد رضا بك).

وكان أحمد رضا بك من رجال التربية والتعليم في الدولة العثمانية في عهد السّلطان عبد الحميد. سافر إلى باريس عام ١٨٨٩م. وأقام هناك، ودرس المذهب العقلاني، وأصدر هناك جريدة «مَشْوَرَتْ « لمناوأة حكم السّلطان عبد الحميد. وعاونه في إصدارها كلٌّ من «ألبرت فووا» وهو يهودي من سلانيك، و»آريستيد باشا» وهو رومي كاثوليكي يوناني و»خليل غانم» وهو عربي ماروني لبناني.

اعتنق أحمد رضا بك المذهب العقلاني، وكان يداوم- وهو في باريس- على دروس «لافيت» كبير العقلانية، وفيلسوفهم في ذلك الوقت.

***

(١) سيد كمال، معجم الأدب (باللغة التركية أيضًا) استانبول ١٩٧٨ صفحة ٣١٦

كان أحمد رضا بك يرى ضرورة القضاء على حكم السّلطان عبد الحميد، وإقامة حكم معاصر يتبع تيارات العصر، وإعطاء ثقل لخريجي المدارس العصرية والحديثة، وثقل في أجهزة الحكم، وإعطاء الحقوق السياسية الكاملة لغير المسلمين. ويقول: إنّ هذا من شأنه ضمان دوام الدولة العثمانية، بعد أن أصبحت نهبًا للقوى الأوروبية، والعمل على نهضة البلاد، ولا يهمّ- في رأيه- اتجاهات الأشخاص من إيمان بالعقلانية، أو الإسلام، أو القومية التركية، أو عدم المركزية، أو الرابطة العثمانية، أو التغريب، ما دام الكلّ يعمل لحلّ مشكلة الدولة أي النهوض بها.

كانت جريدته «مشورت» تصدر في باريس باللغة الفرنسية، ضدّ نظام السّلطان عبد الحميد. ويشترك معه في إصدارها اليهود والروم والمارون. ويتحدث أحمد رضا بك في العدد الأول من «مَشْوَرَتْ» (٣ ديسمبر ١٨٩٥م) عن برنامج حزب الاتحاد والترقي يعبّر فيه عن روح وطنية واضحة، ومقاله هذا يعكس فكره هو، لأنه لا يتحدث فيه عن الدستور والديمقراطية- شغل الاتحاد والترقي الشاغل- أكثر مما يبرز فيه تفكيره ومنهجه العقلاني.

ويدعو أحمد رضا بك- في جريدة «مَشْوَرَتْ» في نسختها التركية- إلى إنه لا يمكن الانتفاع بالدستور، طالما أنّ الجهل موجود،

وأنه من الضروري الاتجاه إلى التربية، ونشر العلوم والمعارف. وأن الذي يكسب لقمة عيشه بعرق جبينه، هو الرجل الذي لا يبحث عن منفعته في الإضرار بالآخرين، فلا بدّ من إعداد هذا الرجل. وعندما نفتقد هذا الرجل، فلن يفيد الدستور شيئًا. هذا رغم أن بقية الاتحاديين يرون في الدستور همَّهم الأوّل.

لكنّ أحمد رضا بك عاد ليعدل في آرائه هذه، بعد أن وجد معارضة الاتحاديّين له في النظرة إلى ضرورة الدستور[1].

***

(١) آق شين، المرجع السابق، ص ٢٨ـ٢٩